ابن البيطار

ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد

محمد أمين الميداني

□ توطئـــة :

حفلـت كتب التراجـم والسير في مكتبة التراث العربي بالحديث عن العلماء والأدباء في شتى الميادين ومختلف المجالات • فكان أن حفظت هذه الكتب أخبار شهرتهم وحوادث علومهم وأمارات نبوغهم ، ودوّن أصحابهـا ما ذاع من صيت هؤلاء العلماء والأدباء ومـا ألفوه ووضعـوه من كتب ومجلـدات وقد تركـوا بصماتهم على أحداث عصرهم شاهداً على ما عرفته تلك العصور من ازدهار وتقدم وتألق في ميادين المعرفة ومجالات العلـوم والآداب والفنـون • وجاء المحـدثون لينفضوا ما علـق على كتب التراث هذه من غبار ويجلوا ما لف أصحابها من نسيان أو اهمـال وليعرّفونا علـى سيرهم وما جادت به قرائحهم وما خطتـه أقلامهـم وما توصلوا اليه من طـرق للدراسة ومناهج للبحث والتأليف •

وكتب التراث العربي ورجالاته قد حظيت بالقدر المقبول من الاهتمام على أن هذه الحظوة لم تكن كافيـة ولا عادلة فكان نصيب بعضهم مـن الدراسات والبحوث ووافر الاهتمام بهم وبأعمالهم أكثر من بعض • وانطلاقاً مـن ذلك جاء مقالنا هذا محاولة متواضعة لتسليط مزيد من الأضواء وللفت انتباه المختصين الى واحد من علماء النبات والأعشاب وهو ابن البيطار ، الذي كان حسب رأي ابن ابي أصيبعـة[١] : « أوحد زمانه وعلامة وقتـه في معرفة النبات وتحقيقه واختيـاره ومواضع نبـاته ، ونعت أسمائه على اختلافهـا وتنوعهـا »[٢] •

وهو بنظر أحد المستشرقين الطبيب العربي الوحيد الذي وقف حياته كلهـا لدراسة علم النبـات[٣] •

ولم تقتصر علوم ابن البيطار على النبات والأعشاب بل شملت الطب والصيدلة أيضاً ، وفاقت شهرته على جميع الصيادلة في القرون الوسطى[٤] ، حيث كانت له تفاسير لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس[٥] •

١ ـ في التعريف بحياة ابن البيطار :

ان لمحة وجيزة عن حياة هذا العالم العربي وعن رحلاته ومكانته العلمية والعصر الذي عاش فيه ضرورية لأن تجعلنا نقف على المشوار الذي قطعه قبل أن تتطرق للقسم الثاني من هذه المقالة والذي يبحث في منهج ابن البيطار في الدراسة واكتشافاته العلمية وما أغنى به مكتبة التراث العربي من كتب ومؤلفات •

آ ـ اسمه ولقبه وتاريخ وفاته :

هو ضياءالدين أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي- نسبه الىمدينة مالقة في الأندلس[٦] — المعروف بابن البيطار • ولد هذا العالم في الربع الأخير من القرن السادس الهجري (لم يعرف تاريخ ميلاده بالضبط[٧]) في مدينة مالقة ، وتلقى تعليمه في مدينة اشبيلية حوالي عام ٦١٧ هـ / ١٢١٩ م ، على أيدي علمائها أبي العباس النباتي ، وعبدالله بن صالح ، وأبي الحجاج •

أما وفاته فكانت في مدينة دمشق في شهر شعبان من عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م •

ب ـ رحلاته ومكانته العلمية :

ان العلوم التي وقف عليها ابن البيطار حياته وحبه وتفانيه لها كانت دافعاً له للانتقال من قطر الى آخر ومن بلد الى بلد •

فبعد أن تلقى هذا العالم علومه الأولى في الأندلس اتجه نحو المشرق حوالي عام ٦١٧-٦١٨ هـ / ١٢١٩-١٢٢٠ م — بعد أن سبقه اليها أستاذه أبو العباس حوالي عام ٦١٣-٦١٤ هـ / ١٢١٦-١٢١٧ م[٨] — ماراً في البداية ببلدان المغرب العربي ليجتمع هناك بالباحثين في علم النبات والمشتغلين به • فكان يجوب الأماكن ليمتحن الأعشاب ويصفها ويذكر فوائدها •

ومن المغرب تابع ابن البيطار طريقه بعد ذلك فزار آسيا الصغرى ماراً بمدينة أنطاكية ليصل منها الى سورية ولينتقل بعدها الى مصر، ومنها رحل الى الحجاز، فغزة ، فالقدس، فبيروت ، وقد زار اليونان حسب رواية احد المستشرقين[٩] •

وقد زادت هذه الرحلات من خبرة هذا العالم في ميدان علم النبات وساعدت على اكتشاف المزيد من الأعشاب • وكما قلنا لم يكن ابن البيطار يألو جهداً في سبيل الاجتماع بالعلماء العرب أينما حل • فكان لقاؤه — على سبيل المثال — بنفيس الدين وتاج الدين البلغاري وغيرهم كثير[١٠] •



مكانتـه العلميــة :

أما في مصر فقد اتصل ابن البيطار بالملك الكامل الأيوبي[١١] الذي كـان يحكم مصـر ودمشق[١٢] . واعتمـد الملك الكامل الأيوبي على هذا العالم في الأدوية والحشائش وجعله مقدماً في أيامه وحظياً عنده[١٣]، فسلمه حوالي عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م منصب رئيس العشابين وأصحاب البسطات في الديار المصـرية[١٤] ، كما جعله رئيساً للأطباء في مصـر[١٥] . وكان تفاني هذا العالم في خدمة الملك الكامل الأيوبي واخلاصه لذكراه دافعاً له ليبقى في خدمة ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[١٦] بعـد وفاة أبيـه ، فكان حظياً مقرباً عنده في الوقت الذي عرف فيـه ابن البيطار وذاع صيتـه واشتهر شـهرة عظيمـة .

جـ ـ عصـره :

عاش ابن البيطار في عصر عرف باضطراب الأحوال السياسية وتدهور الأوضاع العامة .

ففي الأندلس كانت دولة الموحدين على وشك الانهيار ، فحمد الناصر ٥٩٦-٦١١ هـ/ ١١٩٩-١٢١٤ م - أحد أحفاد مؤسس دولة الموحدين عبدالمؤمن الكومي[١٧] - انهزم أمام جيوش الافرنجة وفرَّ الى مراكش ، وكان أن سقطت بعـدها دولة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م[١٨] بعد ان تعاقب على حكمها عـدة أمراء لم يفلح أحد منهم في الابقاء على هـذه الدولـة .

أما في العراق فقد كانت الخلافةالاسلامية تعيش عصيب أوقاتهـا . فالفـرس والأتراك يتحكمون بمقاليـد الحكم ، ويسيرون أمور الدولة على حسب أهوائهم . وكان الخلفـاء العباسيون ألعوبة في أيديهم[١٩] . وكان الخطر يحـدق بالخلافة العباسية منـذ أوائل القرن السابع للهجرة ، فالمغول بقيادة جنكيز خـان استولوا على بخارى وسمرقند وبلـخ حوالي عام ٦١٦-٦١٧ هـ / ١٢١٩-١٢٢٠ م ، ولقي المسلمون على أيديهم ضروباً مختلفة مـن الذل والهوان والعذاب . وكانت نوايا المغول تتجـه نحو غزو العراق الذي اجتاحته جيوشهم بعد معارك مختلفة انقضت بـين كرٍّ وفرّ الى أن بلغوا تخوم بغـداد عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م[٢٠] ليحاصروها ويضربوها بالمناجيق وكان أن سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وكان ذلك ايذاناً بزوال الخلافة العباسية .

أما حالة العلم والعلماء فكانت في أعصب أوقاتها . فبعد أن عرفت بغداد ذلك العصر الذي تألقت فيه العلوم والآداب والفنون، حيث كانت حركة الترجمة من لغات الشعوب والأمم المختلفة، على ما حوتها من آداب وعلوم وفلسفات ، الى اللغة العربية على أشدها في ذلك الوقت، وفتحت هـذه الحركة أمام علمائنا وأدبائنا آفاقاً جديدة ووضعت بين أيديهم امكانات هائلـة ما كانوا ليصلوا اليها أو يعرفوها لولا تلك الترجمـات الغزيرة، لتجيء بعدها القرائح والأفكار العربية

فتزيد عليها وتبتكر فيها بعد أن تمثلتها ووعتها وشرحتها • بعد ذلك العصر المتألق أصبحت معالم الازدهار والتقدم تضمحل وشعلةالحضارة تتلاعب بها رياح الاضطرابات والانقسامات والحروب التي عرفها القرن السابع للهجرة ، الى أن خبت وانطفأت مع استيلاء المغول على بغداد •

أما في الأندلس فان الحركتين العلمية والأدبية كانتا في أوج الازدهار والتقدم منذ أوائل الحكم الاسلامي فيها وبخاصة أيام الناصر الأموي(٢١)• فقد كان الاهتمام والاعتناء بمختلف نواحي العلوم والآداب والفنون جلياً واضحاً ، والآثار العمرانية المتعددة والمنتشرة في أطراف الأندلس شاهدة على هذا الاهتمام ، وذلك الاعتناء • الا أن هاتين الحركتين سرعان ما أصابهما الضعف مع تعاقب حكم الدول على الأندلس الى أن سقطت في أيدي الأفرنج عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م(٢٢) •

٢ ـ منهج ابن البيطار في الدراسة والبحث واكتشافاته العلمية وما أغنى به مكتبة التراث العربي :

لعلنا في هذا القسم نبلغ بيت القصيد فنتعرف على ما أسهم به ابن البيطار ، بنبوغه وتفوقه ومهاراته ، في العلوم التي برع فيها وأضاف اليها المزيد من الاكتشافات مغنياً مكتبة التراث بمؤلفاته ودراساته وبحوثه التي كان لها الأثر البعيد واليد الطولى في تطوير علوم النبات والصيدلة والطب مبتدئين بشهادة تلميذه فيه •

آ ـ شهادة ابن أبي أصيبعة في ابن البيطار :

كان ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) تلميذاً لابن البيطار ، وقد صحبه في الكشف عن النباتات في منطقة دمشق ، وحدثنا ابن أبي أصيبعة عن اجتماعه بأستاذه وعن أخلاقه ومنهجه فيالدراسة والبحث وطريقته فيالكشف عن النباتات والأعشاب فقال: « وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ورأيت أيضاً من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه ودرايته وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه ، ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النباتات في مواضعه ، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جداً ، وكنت أحضر عدة(٢٣) من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة ، مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صححه في بلاد الروم ثم يذكر جملة ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله وما يتعلق بذلك • ويذكر أيضاً جملاً من أقوال المتأخرين فيه • ومواضع الغلط والاشتباه

الذي وقـع لبعضهم في نعته ، فكنت أراجع تلك الكتب معه ، ولا أجـده يغادر شيئاً مما فيها ، وأعجب من ذلك أيضاً أنه ما كان يذكر دواء الا ويعـين في أي مقالة هو مـن كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة »(٢٤) .

ب ـ منهجه في الدراسة والبحث :

ان الأسلوب الذي سلكه ابن البيطار في وضعه لمؤلفاته والطريقـة التي اعتمد عليها في بحوثه ودراساته تستحقان كل تقدير واعجاب. وحري بمن يضع مناهج للدراسة والبحث في أيامنا هذه أن يعتمدها لما فيها من براعة ودقة وأمانة علميـة . ولنترك لابن البيطار نفسه أن يحدثنا عن الأغراض التي توخاها والمنهج الذي اتبعـه في التأليف حـين أخرج كتابه المشهور (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) .

كتب ابن البيطار في مقدمة كتابه هذا : (الغرض الأول) بهذا الكتاب استيعاب القول في الأدويـة المفردة والأغـذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج اليها في ليل كان أو نهار ، مضافاً الى ذلك ذكر ما ينتفـع به الناس من شعار ودثار واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقـالات من كتـاب الأفضـل ديسقوريدس بنصه وكذا فعلت أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه وأسندت في جميع ذلك الأقوال الى قائلها وعرّفت طرق النقـل فيهـا بذكر ناقلهـا واختصصت بما تم لي به الاستبداد(٢٥) وصح لي القول فيـه ، وصح عنـدي الاعتماد عليـه .

(الغرض الثاني) صحة النقل فيما أذكره عـن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لديّ بالخبر ، ادخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيـه سوى الله غنياً وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقلـه أو قائله عدلا فيه عـن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً وقلت لناقله أو قائله ، لقد جئت شيئاً فرياً ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه ولا محـدثاً اعتمـد غـيري على صـدقـه .

(الغرض الثـالث) تـرك التكرار حسب الامكان الا فيما تمس الحاجة اليه لزيادة معنى وتبيـان .

(الغرض الرابع) تقريب مآخـذه بحسب ترتيبه على حروف المعجـم مقفى ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب.

(التنبيه الخامس) التنبيه على كـل دواء وقع فيه وهم" أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد اكثرهم على الصحف والنقـل واعتمادي على التجربة والمشاهـدة حسب ما ذكرت قبـل .

(الغرض السادس) في أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع أني لم أذكر فيه ترجمة دواء الا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة »[٣٦] •

ومن هذه المقدمة نلاحظ أن أسلوب ابن البيطار في وضعه لمؤلفاته كان البدء بالتعريف باسم احد الأدوية ثم اعطاء عدة مرادفات لهذا الدواء مع العودة الى ما كتبه العالم اليوناني ديسقوريدس وكذلك العالم جالينوس فيما يختص هذا الدواء ومن ثم يستشهد ابن البيطار بالمحدثين من العلماء العرب في أيامه وبالدرجة الأولى الغافقي واسحاق بن عمران والدينوري[٢٧] كما عرفنا ذلك من شهادة ابن أبي أصيبعة • وكان ابن البيطار يعتمد على الخبرة والتجربة ولا يتردد عن نبذ ما يراه مخالفاً لما شاهده ولمسه بعد الخبرة والتجربة مع الدقة في النقل وعدم التكرار حريصاً في الوقت نفسه على حسن الترتيب على حروف المعجم مع التنبيه على كل وهم أو غلط ارتكبه أحد من الأقدمين او المحدثين مبدياً رأيه في حال وجود تناقضات او اختلافات بين العلماء المختصين[٢٨] محتفظاً لكل دواء باسمه الذي يعرف في موضع نباته مترجماً له انكان فيه منفعة أو فائدة، وفي هذا كل الصدق والأمانة العلمية اللتين يجب أن يتحلى بهما كل باحث أو دارس ، وهكذا كان حال ابن البيطار الذي وضع منهجاً فريداً في البحث وطريقة مثلى للدراسة فاستحق أن يلفت انتباه الباحثين والمختصين وأن تترجم كتاباته ومؤلفاته لتكون في متناول كل طالب للعلم وكل مجتهد للدراسة والبحث •

ج ـ اكتشافاته العلمية :

لقد أسهم ابن البيطار في مجالي النبات والصيدلة باكتشافاته العلمية البارزة سواء عن طريق العثور على نباتات جديدة أثناء تجواله ورحلاته ذاكراً خواصها وفوائدها الطبية ، أم بالشروح والملاحظات التي دونها فيما يتعلق بتخزين النباتات المختلفة وحفظها وبمؤلفاته الهامة في علم الأقرباذين •

١ ـ ففي ميدان حفظ النباتات وتخزينها: كان ابن البيطار : « أول من شرح تأثير التخزين والحفظ على المواد الفعالة والمكونات الغذائية الموجودة في النبات »[٢٩] : مما سمح فيما بعد بوضع « الأسس العلمية لحفظ وتخزين النباتات الطبية والفطرية ، بالاضافة الى الحبوب أمثال الحنطة وغيرها »[٣٠] • وبذلك سبق هذا العالم بشروحه الدراسات الحديثة التي اعتمدت أصلاً على مؤلفاته ومؤلفات غيره من العلماء العرب لوضع الأصول التي ساعدت على حسن تخزين وحفظ مختلف أنواع النباتات والحبوب لنصل الى ما نعرفه اليوم من أسس وطرق للحفظ والتعليب •

٢ ـ أما عن عثوره على نباتات جديدة : فسيكون من الاطالة أن نعدد كل ما عثر عليه

ابن البيطار اثناء تجواله وتنقلاته بين قطر وآخر، وحسبنا أن نشير هنا الى بعض النباتات سواء المعروفة منها في أيامنا هذه لدى عامة الناس، أو تلك التي هي أقل تداولاً ومعرفة مشيرين في الوقت نفسه الى ظاهرة جد هامة في طريقة التدوين التي اتبعها ابن البيطار لأسماء النباتات ألا وهي احتفاظه بالأسماء البربرية للنباتات التي وجدها وقطفها[٣١]، فعلى سبيل المثال نبات Argan أو (ارجان) وهو ما يعرف ثمره في بلدان المغرب باسم (لوز البربر) • فقد كتب ابن البيطار عن هذا النبات ما نصه : « (لوز البربر) ابن رضوان[٣٢] هو ثمر شبيه بصغير البلوط أصفر اللون في أحد جوانبه ثقب غير نافذة الى داخله وداخله شبيه بحب الصنوبر يجلب من شجر كبار بالمغرب الأقصى حار يابس للبطن ودهنه ينفع من الطرش القديم ووجع الأذن نفعاً بيناً والشربة منه التي تمسك البطن نصف درهم • لي هذا[٣٣] هو الهرجان والبربر بالمغرب الأقصى يسمونه أرجان وهو شجر يكون بالمغرب الأقصى بقبيلة مراكش ببلاد حاحا وركراكا كثير الشوك حديده يمنع شوكه من الوصول الى جني ثمرته ويستخرج من ثمرته دهن بأن تعطى ثمرته المعز او الإبل تأكله عند نضجه على شجره، فاذا أكلته ورمت بنواه من بطونها فحينئذ يلقطونه ويكسرونه كاللوز ويأخذون لبه فيطحن كالزيتون ويستخرج منه دهن يتأدم به وهو عندهم من أفضل الأدهان وأرفعها ويسمى زيت الأركان»[٣٤].

فلوز البربر اسم بربري لأحد النباتات الذي احتفظ به ابن البيطار حين وضع مؤلفه المشهور (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)[٣٥] • وفي ذلك ما يدل على الدقة والأمانة العلمية اللتين تحدثنا عنهما أثناء تعرضنا لطريقته في البحث والتأليف •

ومن النباتات التي جاء ابن البيطار على ذكرها والموجودة في مناطق (مصر) هناك العديد المعروف منها في أيامنا هذه، فعلى سبيل المثال لا الحصر : البامية، الترمس، الشمام، الطرخون، الهليون[٣٦] •

اما عن النباتات الجديدة، ففي خلال تجواله بالقرب من مدينة قسطنطينة (الجزائر)، قطف ابن البيطار لأول مرة نبات Le PYRÊTHRE أو ما يسمى بغرديب • وفي تونس عثر على نبات Le TAFRAIT، أو ما يسمى بالعربية دلدغ[٣٧] • وفي ليبيا دوّن ملاحظاته لأول مرة عن نبات L'OUCHCHAR[٣٨] • هذا عن رحلته في بلدان المغرب[٣٩]، أما في بلدان المشرق فقد قطف ابن البيطار في غزة La PASSERINE او ما يسمى بحشيشة العصفور، وفي القدس قطف Le COIX LACRYMAJOB، وفي لبنان Le DAPHNOÏDES، وفي أنطاكية L'HIPPOHÄE. أو ما يسمى بشولة الصبار[٤٠].

اما مؤلفاته الهامة في علم الأقرباذين فسنفرد لها فقرة خاصة الا أننا نشير سلفاً الى الطريقة



التي انتهجها ابن البيطار وأمثاله من العلماء العرب في وضعهم لكتب العقاقير من شرح للمترادفات اليونانية والعربية واللاتينية مما جعل علماء الغرب أمثال سيمون دي كوردو Simon DE CORDO يحذون حذوهم فيما بعد في وضعهم لمعاجمهم ومؤلفاتهم[٤١] .

د – كتبه ومؤلفاته :

لقد كان حصيلة ما تركه ابن البيطار من كتب ومؤلفات دليلاً واضحاً وبرهاناً جلياً على تفوق هذا العالم ونبوغه في مجالات النبات والطب والصيدلة مما جعله يرقى الى مصاف كبار علماء المسلمين الذين أغنوا المكتبتين العربية والاسلامية بالبحوث والدراسات والمجلدات ، وان لم نفلح نحن أحفاد أولئك العلماء باستغلال ذلك الرصيد الهائل من المعرفة والعلوم تاركين لأوروبا أن تستفيد منه وتستغله في بناء حضارتها ومجدها العلمي ، فحريّ بنا اليوم ان نولي هذه الثروة العلمية اهتمامنا ونكرس لها من وقتنا ما يعيد اليها بريقها ولمعانها بالبحث والدراسة والتنقيب .

أما ما عرفناه من كتب ابن البيطار ومؤلفاته فهي :

١ – كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية :

هذا الكتاب من أشهر كتب ابن البيطار عمد فيه الى ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها ومنافعها مبيناً الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيها .

ولقد ذكرنا في معرض حديثنا عن منهجه في الدراسة والبحث الأغراض التي توخاها حين وضع مؤلفه هذا ، وحسبنا ان نشير هنا الى شهادة ابن أبي أصيبعة – الذي كان كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) أعظم الكتب وأوفاها في تراجم الأطباء العرب[٤٢] – فقد قال : « لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجلّ ولا أجود منه »[٤٣] ، ذاكراً أن ابن البيطار قد صنف كتابه هذا للملك الصالح نجم الدين أيوب حين كان مقيماً في مصر[٤٤] .

لقد كان المرجع الأساسي لكتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) حسب رواية الدكتور مايرهوف[٤٥] – كتاب أحمد الغافقي المتوفى سنة خمسمائة وخمسين هجرية .

طبع هذا الكتاب في القاهرة (بولاق) سنة ١٢٩١ هـ – ١٨٧٤ م. في أربعة أجزاء وقد ترجمه الى اللغة الفرنسية الدكتور لوسيان لوكلير Lucien LECLERC وسمحت هذه الترجمة بالقيام بأبحاث عديدة في علم الأقرباذين عند العرب . وقد قام ابن منظور صاحب (لسان العرب) بوضع مختصر لكتاب ابن البيطار ، وهذا المختصر موجود في الخزانة التيمورية[٤٦].

٢ – ومن كتبه المشهورة أيضاً كتاب (المغني في الأدوية المفردة)[٤٧] ، وهو مرتب

بحسب مداواة الأعضاء ، وقد استعمله ابن السُّوَيْدي[٤٨] – تلميذ ابن البيطار – لتأليف كتابه (السمات في أسماء النبات)[٤٩] .

لقد ألّف ابن البيطار كتابه هذا بعد ان كتب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) مما أتاح لهذا العالم أن يضيف عدداً لا بأس به من الوثائق الجديدة في كتابه المغني ، الذي ينقسم الى عشرين فصلاً يحوي كل واحد منه على الأدوية النافعة لمعالجة مرض من الأمراض ، فعلى سبيل المثال :

الفصل الأول : يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض الرأس .

الفصل الثاني: يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض الأذن .

الفصل الثالث: يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض العيون .

أما الفصول الأربعة الأخيرة من هذا الكتاب القيّم فهي :

الفصل السابع عشر : يحوي على الأدوية المستعملة للتجميل .

الفصل الثامن عشر : يحوي على الأدوية المستعملة ضد الحرارة أو فساد الجو .

الفصل التاسع عشر : يحوي على الأدوية المستعملة ضد السموم .

الفصل العشرون : يحوي على الأدوية الأكثر استعمالاً في الطب[٥٠] .

ولم يكتف ابن البيطار في كتابه هذا بذكر الأدوية بل أدلى برأيه فيها بعد أن أخضعها للتجربة والملاحظة . فمثلاً مما ذكره عن مرض الجدري . أنه حالما تظهر البقع عند الطفل يجب أن ندلك له باطن القدم بالحنة مما يجنبه – حسبما لاحظه ابن البيطار – أن تظهر مثل هذه البقع على العيون[٥١] .

وقد لاحظ لوكلير أن (المغني في الأدوية المفردة) كان معتدلاً في التفصيلات المتعلقة بعلم الأمراض على خلاف تلك المتعلقة بالتاريخ الطبيعي وفي هذا النطاق نجد عدة وقائع لا نجدها في كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)[٥٢] .

ولا يزال كتاب (المغني في الأدوية المفردة) مخطوطاً[٥٣] ، وقد ساعد هذا الكتاب على التعرف على حياة ابن البيطار[٥٤] . وقد أهدى هذا العالم كتابه المغني للملك الصالح نجم الدين أيوب[٥٥] .

٣ – كتاب (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام) : والمنهاج هو كتاب ابن جَزْلَة[٥٦] (منهاج البيان فيما يستعمله الانسان) – مخطوط – وقد رتبه ابن جَزْلَة على الحروف وجمع فيه اسماء الحشائش والعقاقير والأدوية[٥٧] . وفي كتابه (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من

الخلل والأوهام) عمد ابن البيطار الى شرح أدوية كتاب ديسقوريدس[٥٨] .

٤ – كتاب (ميزان الطبيب) ولا يزال مخطوطاً[٥٩] .

٥ – كتاب (الأفعال الغريبة والخواص العجيبة)[٦٠] .

٦ – (رسالة في الأقضية والأدوية)[٦١] .

٧ – (مقالة في الليمون وشرابه ومنافعه)[٦٢] .

٨ – كتاب (جامع المنافع البدنية في طب البرية)[٦٣] .

٩ – (رسالة في تداوي السموم)[٦٤] .

□ الخاتمة :

وبعد ، فهذا غيض من فيض لما احتوته مكتبة التراث العربي ، وما كتبه المستشرقون عن العالم الاسلامي ابن البيطار ، الذي شملت علومه واختصاصاته مجالات النبات والصيدلة والطب، وان كنا قد أغفلنا من ذكر أخباره أو كبير قدره وسعة اطلاعه وعلومه وعظيم تفوقه ونبوغه فعذرنا أنها محاولة متواضعة أردنا منها أن نلفت انتباه اخواتنا المشتغلين والمتخصصين في علوم ابن البيطار لعل ما بقي من كتبه المخطوطة أو المطبوعة – وما أندرها – يلقى الاهتمام للتفرغ للطبع والشرح والتعليق ، فمهما تعاقبت القرون والسنون على كتب التراث فان قيمتها لا تضيع وبريقها لا يتلاشى وبخاصة ما جاء به نبوغ ابن البيطار وذكاؤه ، فما قامت عليه علوم الصيدلة والنبات قد بني على هذه الكتب وعلى غيرها من مؤلفات العلماء العرب والتي لها علينا ولأصحابها الحق كل الحق بالحفظ والإشادة والتذكير .

★ ★ ★

□ هوامش :

١ ـ هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي : طبيب مؤرخ ولد في مدينة دمشق عام ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م . سليل عائلة خرجت عدة أطباء . أقام في مدينة دمشق وتوفي بصرخد ـ المعروفة اليوم بصلخد ـ (حوران) عام ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م . له عدة مؤلفات أشهرها (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) . راجع الأعلام لخيرالدين الزركلي منشورات مطبعة كوستاتسوماس وشركاه . القاهرة : ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م . الطبعة الثانية جـ ١ ص (١٨٨ ـ ١٨٩) . والموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية الطبعة الثانية منشورات :
E. J. BRILL LEYDE - G. - P. MAISONNEUVE et LAROSE S. A. PARIS 1971
الجزء الثالث ص (٧١٥ ـ ٧١٦) .

٢ ـ ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء . الباب الرابع عشر ص (٦٠١) . شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا . منشورات مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ م .

٣ ـ لوسيان لوكلير : « دراسة تاريخية ولغوية عن ابن البيطار » . مقالة منشورة في المجلة الأسيوية الصادرة باللغة الفرنسية ص (٤٣٧) . شهر حزيران من عام ١٨٢٦ م .
LECLERC lucien « Etude Historique et Philologiques sur EBN BEITAR ». Journal Asiatique. Juin 1962, p. 437.

٤ ـ جلال مظهر . أثر العرب في الحضارة الأوروبية . منشورات دار الرائد بيروت ١٩٦٧ م . ص (٢٧٣) .

٥ ـ ديسقوريدس : طبيب يوناني ولد في عين زربة في آسيا الصغرى في القرن الأول بعد الميلاد .

٦ ـ مالقة ـ حسب ما أخرجه ياقوت الحموي في معجم البلدان. منشورات دار صادر بيروت ١٩٧٧ . الجزء الخامس ص (٤٣) : « مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية » .

٧ ـ هناك من المستشرقين من ذكر أن ولادة هذا العالم كانت في عام ١١٩٧ م . الا أن الدكتور لوكلير لم يعتمد هذا الرأي . راجع لوسيان لوكلير . تاريخ الطب العربي . منشورات برت فرانكلين ـ نيويورك ١٨٧٦ م . الجزء الثاني ص (٢٢٥) .

LECLERC lucien. Histoire de la médecine arabe. Editions Burt Franklin, N.Y. 1876. Tome II, p. 225.

٨ ـ المرجع السابق ص (٢٢٦) .

٩ ـ رينية باسية . الأسماء البربرية للنباتات في الجامع لمفردات الادوية والأغذية لابن البيطار . في مجلة الجمعية الآسيوية الايطالية . لعام ١٨٩٩ م . ص (٥٣) .

BASSET René. les nom berbères des plantes dans le traité des simples d'Ibn ELBEITAR. Giornal della Societa Asiatica Italiana. Volume Doclicesiom 1899, p. 53.

١٠ـ لوكلير . تاريخ الطب العربي . الجزء الثاني ص (٢٢٨).

١١ـ هو محمد بن محمد بن أيوب من سلاطين الدولة الأيوبية. ولد بمصر وتولى حكمها بعد وفاة أبيه سنة ٦١٥ هـ/١٢١٧م. وامتدت حدود الدولة الأيوبية أيام حكمه لتصل الى ديار الشام ، كما دخل ابنه (الملك المسعود) سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٢ م . مكة المكرمة . وقد توفي الملك الكامل في دمشق عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م . ودفن في قلعتها . راجع الأعلام للزركلي . الطبعة الثانية الجزء السابع . ص (٢٥٥).

١٢ـ الدكتور أحمد السعيد سليمان . تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . منشورات دار المعارف بمصر عام ١٩٧٢ م . الجزء الأول ص (١٤٢) .

١٣ـ محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي . فوات الوفيات ص (٤٣٤) . وهو ذيل على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان . حققه وضبطه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد .وطبع في مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ م .

١٤ـ ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء .الباب الرابع عشر .

١٥ـ أرنست سيكينبرجر . النباتات المصرية لابن البيطار .مقالة منشورة في مجلة المعهد المصري الصادرة باللغة الفرنسية. الجزء الثاني ، رقم (١٠) لعام ١٨٨٩ م . القسم الثاني من العدد ص (٣) .

SICKENBERGER Ernest. « les Plantes Egyptiennes d'Ibn Beithar ». Bulletin de l'Institut Egyptienne. Deuxième Série No. 10. Année 1889. Deuxième Parlie, p. 3.

١٦ـ هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب من كبار ملوك بني أيوب في مصر . ولد في القاهرة عام ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م ، وولي الحكم بعد وفاة أبيه عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م . مات الملك الصالح بالمنصورة في مصر عام ٦٤٧ هـ/١٢٤٦ م . وقد عُرف بالشجاعة والعزم أيام حكمه . راجع الأعلام .للزركلي . الطبعة الثانية الجزء الأول ص (٣٨٢) .

١٧ـ هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان ،أبو محمد الكومي ، مؤسس دولة الموحدين في المغرب ، وافريقية وتونس . كانت ولادته عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م في مدينة تاجرت قرب تلمسان في الجزائر . بويع أميرا للمؤمنين عام ٥٢٦ هـ/١١٣١ م بعد أن تم له الأمر في المغرب الأقصى عقب وفاة المهدي ابن تومرت . دخل مراكش عام ٥٤١ هـ

/١١٤٦ م وخضع له المغربان الأقصى والأوسط ٠استولى على اشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب ٠ توفي في رباط سلا عام ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م ونقل الى تينملل ليدفن فيها ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي ، الطبعة الثانية ٠ الجزء الرابع ٠ ص (٣١٩) ٠

١٨ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية ٠ عصر الاتساق٠ الطبعة الأولى ٠ منشورات دار الأندلس بيروت ١٩٥٨ م ٠ ص (٢٥٤) ٠

١٩ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية عصرالانحدار ٠الطبعة الأولى منشورات دار الأندلس بيروت ١٩٦٣ م٠ص (٨)٠

٢٠ـ المرجع السابق ص (٩) ٠

٢١ـ هو عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، أبو المطرف المرواني الأموي ٠ كان أول من تلقب بالخلافةمن رجال الدولة الأموية في الأندلس وكان ذلك عام ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م ٠ ولد في عام ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م في قرطبة وتوفي فيها عام ٣٥٠ هـ/٩٦١ م ٠ راجع الأعلام للزركلي الطبعة الثانية ٠ الجزء الرابع ٠ ص (٩٩ ـ ١٠٠) ٠

٢٢ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية ٠ عصر الاتساق ٠ الطبعة الأولى ص (٢٥٧) ٠

٢٣ـ ولعله قصد : أحضر دراسة عدة من الكتب ٠٠٠

٢٤ـ ابن أبي أصيبعة ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٠ الباب الرابع عشر ٠

٢٥ـ ولعله قصد (الاسناد) ٠

٢٦ـ نقلنا ما جاء في هذه المقدمة من احدى نسخ كتاب ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) ٠ الجزء الأول ص (٢ ـ ٣) ٠ والمطبوع حسب ما ورد في الصفحتين(٢١٠ ـ ٢١١) من نهاية الجزء الرابع في مطبعة (اسماعيل ابن ابراهيم بن محمد علي) ـ بولاق ـ حيث تمت طباعة هذه النسخة في أواخر ذي القعدة من سنة مائتين وألف واحدى وتسعين هجرية ٠ (وهذه النسخة موجودة في المكتبة الوطنية لمدينة ستراسبورغ بفرنسا تحت الرقم س ١١٢٥٩ ٠

٢٧ـ هو أحمد بن داود بن وتند الدينوري ، أبو حنيفة ٠ عالم ومؤرخ نباتي وهو من أوائل المسلمين الذين قاموا بوضع أسس تصنيف النبات في القرن الثالث الهجري ٠ ترك عدة مؤلفات منها ما طبع مثل « الأخبار الطوال » وهو مختصر في التاريخ ٠ لم يعرف تاريخ ميلاده ، الا أن وفاته كانت في عام ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي ٠ الطبعة الثانية الجزء الأول ٠ ص (١١٩) ٠

٢٨ـ لوكلير ٠ دراسة تاريخية ولغوية عن ابن البيطار ٠ ص(٤٣٤) ٠

٢٩ـ الدكتور علي مجذوب ٠ علوم الزراعة والبيطرة في الحضارة الاسلامية ٠ الاسلام اليوم : مجلة المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٠ العدد الأول ٠ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م٠ص (٥٧) ٠

٣٠ـ المرجع السابق ٠ ص (٥٧) ٠

٣١ـ لوكلير ٠ تاريخ الطب العربي ٠ الجزء الثاني ص (٢٢٦)٠

٣٢ـ بدأ ابن البيطار بذكر ما كتبه أحد العلماء العرب عنهذا النبات وهو ابن رضوان ٠ وابن رضوان هذا هو علي ابن رضوان بن علي بن جعفر ، أبو الحسن : طبيب ، رياضي ومن العلماء من أهل مصر ٠ لم يعرف تاريخ ميلاده وكانت وفاته عام ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ٠ له عدة مؤلفات وترجمات ومن كتبه المطبوعة « دفع مضار الأبدان » ٠ وقد كان حسب ما ذكره ابن تغري بردي : من كبار الفلاسفة في الاسلام ٠ومن كتبه في هذا المجال « حل شكوك الرازي على كتب جالينوس » و « المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع »و «التوسط بين أرسطو وخصومه» ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي، الطبعة الثانية ٠ الجزء الخامس ص (١٠٠) ٠

٣٣ـ ويقصد هنا ابن البيطار نفسه ٠

٣٤ـ ابن البيطار ٠ كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٠مطبعة اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م٠ الجزء الرابع ص (١١٢) ٠

٣٥ـ رينية باسية ٠ الأسماء البربرية للنباتات في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٠ ص (٥٨) ٠

٣٦ـ أرنست سيكيبنرجر ٠ النباتات المصرية لابن البيطار ٠ص (٩ ، ١٠ ، ١١) ٠
ذكر سيكينبرجر أن ابن البيطار أشار الى تسع وتسعين نباتا من نباتات مصر وانه (أي سيكينبرجر) أكد وجود واحد وخمسين من هذه النبات ٠ وان هناك أحد عشر نباتا لم يتعرف أحد على وجودهم وانـه قد توصل لتحديـد خمسة منهم على خلاف الستة الباقية وانه رفض وجود أو طعن في ستة وثلاثين نباتا وبذلك يكون المجموع تسعا وتسعين نباتا ٠ راجع مقالته ص (٦) ٠

٣٧ـ جاء ابن البيطار على ذكر هذا النبات في كتابه (الجامع لمفردات الأدويـــة والأغذيـة) ، الجـزء الثـاني ص (٩٥) :
« (دلدغ) أبو العباس النباتي يقـال مضموم الدال ساكن اللام بعدها دال أخرى مضمومـة ثم غين معجمة اسـم ببلاد بيت المقدس للنـوع العـريض الورق من الكلـخ المعروف بغرناطة من بلاد الأندلس بالكلخ الدلبي وبغيرها مـن بلاد البربر بالتافيفرا مختبر عندهم في النفع للاوجـاع ويزيد في الباه شربا قال المؤلف هذا الدواء المسمى باليونانية سفندوليون » ٠

٣٨ـ لوسيان لوكلير ٠ تاريـخ الطب العربي ٠ الجـزء الثاني ص (٢٢٦) ٠

٣٩ـ المرجع السابق ٠ ص (٢٢٦) ٠

٤٠ـ المرجع السابق ٠ ص (٢٢٨) ٠

٤١ـ جلال مظهر ٠ اثر العرب في الحضارة الأوروبيـة ٠ ص(١٩٨) ٠

٤٢ـ الدكتور نشات حمارنة ٠ تراجم الأطباء العرب ٠ مجلـة التراث العربي٠ العدد الرابع٠ السنة الثانية٠ آذار ١٩٨١ م٠ ص (٣٦) ٠

٤٣ـ ابن أبي أصيبعة ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٠ الباب الرابع عشر ٠

٤٤ـ شحاته قنواتي ٠ تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهـد القديم والوسيط ٠ منشورات دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م ٠ ص (١٦٩) ٠

٤٥ـ المرجع السابق ص (١٦٩) ٠

٤٦ـ راجع مجلة المجمع العلمي العربي ٠ دمشق ٠ المجـــلد الثالث ٠ الجزء الحادي عشر ـ تشرين الثاني عام ١٩٢٣ م ٠ ص (٣٦١) ٠

٤٧ـ في ترجمة فوات الوفيات اسم الكتاب (المغني في الطب)٠

٤٨ـ هو ابراهيم بن محمد بن علي بن طرخان الانصاري ، أبواسحاق ، عز الدين ، من ولـد سعد بن معـاذ ، من الأوس ، نسبته الى السويداء ٠ طبيب دمشقي كانت ولادته عام ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م ٠ عمـل طبيبـا في « البيمارسـان النـوري وبيمارسان باب البريد » في دمشق ٠ نه في الطب « التذكرة الهادية » ٠ و « الباهر في خواص الجواهر » ٠ توفي عـام ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي ٠ الطبعـة الثانية ٠ الجزء الأول ص (٦٠) ٠

٤٩ـ شحاته قنواتي ٠ تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهـد القديم والوسيط ٠ ص (١٦٩) ٠

٥٠ـ لوسيان لوكلير ٠ تاريخ الطب عند العرب ٠ الجزء الثاني ص (٢٣٥ ـ ٢٣٦) ٠

٥١ـ المرجع السابق ٠ ص (٢٣٦) ٠

٥٢ـ المرجع السابق ٠ ص (٢٣٦) ٠

٥٣ـ هذه المخطوطة موجودة في باريس وهناك عدة روايات لرقمهذه المخطوطة ٠ فقد كتب لوكلير أنها تحت الرقم /١٠٠٨/ في المجموعة القديمة ، اما في المجموعة الجديدة فهي تحت الرقم /١٠٢٩/ ٠ أما في موسوعة بروكلمان ص (٦٤٨) فالمخطوطة موجودة في باريس تحت الرقم (I/٢٩٩٠) ، أما فيالملحق الأول لنفس الموسوعة ص (٨٩٧) فهي تحت الرقم (٦٦٢٣ر٥٧٧٧) ٠

٥٤ـ لوسيان لوكلير ٠ تاريخ الطب عند العرب ٠ الجزء الثانيص (٢٣٦) ٠

٥٥ـ الموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية ٠ الطبعةالثانية ٠ الجزء الثالث ص (٧٦٠) ٠

٥٦ـ هو يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي ، أبو علي ٠ لـميعرف تاريخ ميلاده ٠ كان باحثا من أهل بغداد ، وامام الطب في عصره ٠ كان مسيحيا وأسلم في سنة ٤٦٦ هـواتصل بالمقتدي بالله العباسي ٠ من كتبه بالاضافة للمنهاج : « تقويم الأبدان » وهو مطبوع ٠ و « الاشارة في تلخيص العبارة » ٠ ورسالة « الرد على النصارى » ٠ ورسالة في « فضائل الطب » كانت وفاته في سنة ٤٩٣ هـ/١١٠٠ م ٠
راجع الأعلام ٠ للزركلي ٠ الطبعة الثانية ٠ الجزء التاسع ٠ ص (٢٠٢ ـ ٢٠٣) ٠

٥٧ـ في الفاتيكان نسخة منه وقد ترجم الى اللاتينية عام ١٥٣٢ م ٠ الأعلام للزركلي ٠ الطبعة الثانية ٠ الجزء التاسع ٠ ص (٢٠٢) ٠

٥٨ـ ابن أبي أصيبعة ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٠ الباب الرابع عشر ٠

٥٩ـ الأعلام ٠ للزركلي ٠ الطبعة الثانية ٠ الجزء الرابع ص(١٩٢) ٠

٦٠ـ ابن أبي أصيبعة ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٠الباب الرابع عشر ٠

٦١ـ الموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية ٠ الطبعةالثانية ١٩٧١ ٠ الجزء الثالث ص (٧٥٩) ٠

٦٢ـ موسوعة بروكلمان ٠ الصادرة باللغة الألمانية ٠ الملحقالأول لعام ١٩٣٧ م٠ص (٨٩٧) ٠

٦٣ـ المرجع السابق ٠ ص (٨٩٧) ٠

٦٤ـ موسوعة بروكلمان ٠ الصادرة باللغة الألمانية طبعة عام١٩٤٣ م ٠ ص (٦٤٨) ٠

★ ★ ★